

تفسير ابن كثير

قال عبد الرزاق : عن سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الصحرى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود B في قوله تعالى : { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها } الآية قال : هو رجل من بني إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس : هو صيفي بن الراهب قال قتادة وقال كعب : كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيماً بيت المقدس مع الجبارين وقال العوفي عن ابن عباس B : هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها وقال مالك بن دينار : كان من علماء بني إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد بعثه نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال ابن جرير : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال : هو بلعام وقالت ثقيف : هو أمية بن أبي الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو في قوله { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا } الآية قال : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاته المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعاراً ربانية وحكما وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي نمر حدثنا سفيان عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها } قال هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له منها ولد فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلك واحدة فما الذي تريدان ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر فدعا الله أن يجعلها كلبه فصارت كلبه فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبه يعيرنا الناس بها فدعا الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس غريب وأما

المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف : كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال : كان قد أوتي النبوة فانسلك منها حكاة ابن جرير عن بعضهم ولا يصح وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بلعم - أتاه بنو عمه وقومه فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى : { فانسلك منها فأتبعه الشيطان } الآية وقال السدي : لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله { فإنها محرمة عليهم أربعين سنة } بعث يوشع بن نون نبيا فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام فكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم : لا ترهبوا بني إسرائيل فإنني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمن فكان ينكح أتاناً له وهو الذي قال الله تعالى : { فانسلك منها } وقوله تعالى : { فأتبعه الشيطان } أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال : { فكان من الغاوين } أي من الهالكين الحائرين البائسين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان B حدثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك] قال قلت يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي ؟ قال [بل الرامي] إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الإرجاء وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما .

وقوله تعالى : { ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه } يقول تعالى : { ولو شئنا لرفعناه بها } أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها { ولكنه أخلد إلى الأرض } أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي وقال أبو الراهويه في قوله تعالى : { ولكنه أخلد إلى الأرض } قال : تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة

بانياس فسجدت الحماره ﷻ وسجد بلعام للشيطان وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير C : وكان من قصة هذا الرجل ما حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية { وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا { فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان مجاب الدعوة قال : وإن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام أو قال : الشام قال : فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا : ادع اﷻ على هذا الرجل وجيشه قال حتى أوامر ربي أو حتى أوامر قال فآمر في الدعاء عليهم فقيل له لا تدع عليهم فإنهم عبادي وفيهم نبيهم قال : فقال لقومه إني قد آمرت ربي في الدعاء عليهم وإني قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا : ادع عليهم فقال : حتى أوامر ربي فآمر فلم يأمره بشيء فقال : قد وامت فلم يأمرني بشيء فقالوا : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى قال : فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحوا من ذلك إن شاء اﷻ قال : فقالوا ما نراك تدعو إلا علينا قال : ما يجري على لساني إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لي ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم إن اﷻ يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم اﷻ فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهم قوم مسافرون فعسى أن يزنا فيهلكوا قال : ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما اﷻ أعلم بهو فقال : فقال أبوها أو بلعام لا تمكني نفسك إلا من موسى قال : ووقعوا في الزنا قال : فأتاها رأس سبط من أسباط بني إسرائيل فأرادها على نفسه فقالت : ما أنا بممكنة نفسي إلا من موسى : رجل من بني هارون ومعه الرمح فيطعنهما قال : وأيده اﷻ بقوة فانتظمهما جميعا ورفعهما على رمحه فرآهما الناس - أو كما حدث - قال : وسلط اﷻ عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا قال أبو المعتمر : فحدثني سيار أن بلعاما ركب حماره له حتى أتى العلولي أو قال طريقا من العلولي جعل يضربها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت : علام تضربني ؟ أما ترى هذا الذي بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه قال : فنزل وسجد له قال اﷻ تعالى : { وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون { قال : فحدثني بهذا سيار ولا أدري لعله قد دخل فيه شيء من حديث غيره (قلت) هو بلعام ويقال بلعم بن باعوراء ويقال ابن أبر ويقال ابن باعور بن شهتوم بن قوשתم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال بن حران بن آزر وكان يسكن قرية من قرى البلقاء قال ابن عساكر : وهو الذي كان يعرف اسم اﷻ الأعظم فانسلخ من دينه له ذكر في القرآن ثم أورد من قصته نحو ما

ذكرناه ها هنا أوردته عن وهب وغيره وإنا أعلم وقال محمد بن إسحاق بن سيار : عن سالم أبي النصر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه فقالوا له : هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع إنا عليهم قال ويلكم نبي إنا معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من إنا ما أعلم ؟ قالوا له : ما لنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل وهو جبل حسان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمتها حجة عليه فقالت : ويحك يا بلعام أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا ؟ تذهب إلى نبي إنا والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها يضربها فخلى إنا سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف إنا لسانه إلى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل فقال له قومه : أتدري يا بلعام ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا ما لا أملك هذا شيء قد غلب إنا عليه قال : واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم : قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمر لكم وأحتال جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن رزى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخلت النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبي - ابنة صور رأس أمته - برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبتة فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال : إني أظنك ستقول هذا حرام عليك ؟ قال : أجل هي حرام عليك لا تقربها قال فوا إنا لا أطيعك في هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل إنا D الطاعون في بني إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خصرته وأسند الحربة إلى لحيه وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا في ساعة من النهار فمن هنالك تعطي بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والذراع واللقى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار

ففي بلعام بن باعوراء أنزل ا { واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون } وقوله تعالى : { فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث } اختلف المفسرون في معناه فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النصر أن بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب في لهيئه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر وقيل معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب في لهيئه في حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث في الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى : { سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون } { استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر ا لهم } ونحو ذلك وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصري وغيره وقوله تعالى : { فاقصص القصص لعلهم يتفكرون } يقول تعالى لنبيه محمد صلى ا عليه وسلّم { فاقصص القصص لعلهم } أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له في إضلال ا إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة ا عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب في غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن وشعب الإيمان أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان كلهم ا موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال { لعلهم يتفكرون } أي فيحذروا أن يكونوا مثله فإن ا قد أعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد صلى ا عليه وسلّم يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتهم ومؤازرتهم كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل ا به ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة وقوله { ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا } يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال [ليس لنا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه] وقوله { وأنفسهم كانوا يظلمون } أي ما ظلمهم ا ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى إلى الركون إلى دار البلى والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى